الأحــــــــــد 10-10-2010

1136- النقــد (الذاتــى) الزائـــف، والحــذر الواجب [1]

تـعـتـعة قـديمة

إن أهم مـا يمكن أن نـعده من مفـاخر الحضارة الـغربـية الـتى لا نملك إلا الاعتراف بها، فـالإعجاب بـعطائـهـا، هـو مـا تمتع بـه مجتمعاتهم من قدرة على **نقـد الـذات**، وإعادة الـنظر فـالـبحث عن تـعديـل أو تـغيير أو تـطويـر. إن الـبـاحث الأمين يـستطيع أن يجد فى نـشاطهم **المعرفى والـفنى والـتنظيرى والـعلمى مـا يـؤكـد أنهم لا يـكفون عن الحوار والـتغيير والـتطويـر** وهم يـنتقـلون من مرحلة إلى مـرحـلة. لا تـكـاد تـظهر نـظريـة، أو حتى نظرة، حتى يـتحمسون، ويـنـتمون، ويـروجون لها كـما يـنـبغى بـالحق والـبـاطل، ثم يمر عدد من الـسنين وإذا بهم يـفـنـدونها ثم يـنسخونها جزئـيـا أو كـلـيـا. حدث هذا - مـثلا- من الـبـنـيـوية إلى الـتفـكـيكـية، ومن الحداثـة إلى مـا بـعد الحداثـة، وهكذا. مـا ذا يـعنى ذلك ؟ هلى هم على هذا الـقـدر الهائـل من الأمـانـة ومـن الحركـيـة بحيث يـصلحون أنـفـسهم أولا بـأول وبهذه الـسرعة المربـكـة؟ ولمـاذا نـنقـدهم نحن مـا دامـوا يـنقـدون أنـفـسهم بهذه المبـادرة وتـلك المرونـة؟ وهل يـترتـب على ذلك أن نظل فى موقـع المتفـرجين، يـستوى فى ذلك المؤيـد والـتـابـع مع الـنـاقـد، والـرافض؟

صـحيـح أنهم يـنـقـدون ويـتـطـورون بـسرعة مـزعجة لـكن عـلـيـنـا أن نحذر أن نـبـالـغ فى انـبـهـارنـا بـذلك، فـمن نـاحـية: كـثير من نـقـدهم لأنـفـسهم يـقع فى خـانـة الألـعاب الملتبـسة، ومن نـاحـية أخرى إن نـقـدهم لأنـفـسهم كـثيرا مـا يـنـتـهى إلى تـعمـيق مـا هم فـيـه تحت مسمى آخر، دون تـغـيير الاتجاه، رغم تـغـيير الـنـظريـة أو المسمى. لا يـنـبـغى أن يـلـهـيـنـا نـقـدهم لأنـفـسهم عن حقـنـا فى الـنـقـد المـوضوعى من مـوقـعنـا، ونحن نـبـحث لـنـا (ولهم) عن بـديـل جذرى.

أورد فـيـمـا يـلـى أمـثـلـة محدودة لمـا يمكن أن أسمـيه "الـنـقـد الـزائـف"، وأكـتـفـى بـعرض ثـلاثـة تـنـويـعـات هـى: "**الـنـقـد الـمخـادع**" (مـدح بمـا يـشـبـه الـذم)، و"**الـنـقـد المجهض**"، و"**الـنـقـد الـتبريـرى**".

(1) أمـا **الـنـقـد المخادع** (شئ أشـبـه بـقـول شـاعرنـا:: **ولا عيب فـيـهم غير أن سيـوفـهم، بهن فـلـول من قـراع الـكـتـائـب !!)**
فـهم يـعرون بـه عـيـبـا حـقـيـقـيـا يجرى عـنـدهم مـثـل اضطهـاد الـزنـوج،

أو انحراف الشباب، أو سوء حالة السجون، أو القهر فى مؤسسات الأحداث، إلخ مثل هذا النقد يبهرنا قليلا أو كثيرا، فنشاركهم رؤيتهم، وقد ننزعج من تدهور مؤسساتهم، وقد نصفق لشجاعتهم، ونفرح برؤيتهم، لكننا بنظرة ثانية نكتشف أن الجرعة التى وصلتنا ليست لشجب ما يجرى فعلا من هذه المثالب غير الإنسانية، وإنما هى قد أوصلت لنا أكثر كيف أنهم ليسوا بحاجة إلى اجتهادنا ونقدنا مادامت عندهم آلية رفض ذلك كله وتعديله جدا، عن طريق مؤسسات متماسكة خيرة (مثل الكنيسة أو هيئات حقوق الإنسان) فنخرج من كل هذا بالتصفيق لهم فى الحالين: معترفين بالخطأ، ثم مصححينه.

(2) أما **"النقد المجهض"** فهو ما يقوم به فريق منهم يشاركنا موقفنا فى رؤية عيوب منهجهم، أو مضاعفات طريقهم. هذا الفريق قد ينقد -مثلا- المبالغة فى التسليم للبدائل التكنولوجية حتى يحل الإنسان الآلى (الروبوت) محل الإنسان العامل، بما يترتب عليه من زيادة مشاكل البطالة مثلا، فنجد أنفسنا وكأننا نشاركهم الرأى بكل التفاصيل، وننبهر مرة أخرى بمدى موضوعيتهم، وصدق تناولهم. لكن الذى يترتب على ذلك هو أن نقدهم هذا الذى يقدمونه فنا، أو رأيا، أودراسة، أو إحصاء يدفعنا إلى أحد أمرين: إما رفض التكنولوجيا خوفا مما حذرونا منه (خوفا من البطالة مثلا)، وإما أن نكتفى بالالتفات إلى ما أشاروا من نقاط ضعف أو عيوب جزئية بدلا من أن نتعمق فى المآخذ الأخطر والأكثر دلالة، مثلا: خطورة أن تفصلنا الطبيعة الخائليةصناعة الكمبيوتر على الشاشة الصغيرة عن معايشة بانوراما الطبيعة الأم المتسعة التى لا غنى عن خطابها المباشر لنكون بشرا، وأيضا خطورة أن يغنى هذا التواصل الرمزى عن بعد على العلاقات بين البشرلحما ودما، أو خطورة استبدال أيديولجيا الآلة بنبض الإيمان. إن هذا النوع من نقدهم لأنفسهم - إذا اكتفينا بالانبهار به - قد يجهض نقدا أعمق هو من حقنا، (وحقهم) ونحن نبحث عن بديل جذرى يصلح لنا ولهم معا.

(3) أما النقد التبريرى "بأثر رجعى"، أو ما يمكن أن يسمى **"الحكمة بعد أوانها: أو الحكمة بعد الحدث"**، فهو ما يمارسونه أيضا بعد أن يعملوا عملتهم. الأفلام والمسلسلات التى تتناول مآسى حرب استعباد الأفارقة (مسلسل الجذور) أو حرب تحرير الزنوج (ذهب مع الريح) هى أعمال فنية رائعة، ولكن ماذا يفيد الزنوج اعتذار عن قهر قديم، التفرقة لا تزال تسرى، ولكن بأساليب أحدث وأخبث، وماذا يفيد الفيتناميون الاعتذار فى فيلم أو مسرحية، بل ماذا يفيد الظالم نفسه من نقده واعترافه؟ هل تعلموا، هل عدلوا، هل منعهم هذا الفن العظيم !! من استعمال غازات غير مشروعة فى حرب الخليج، هل منعهم من استعمال طيارات بلا طيار، أو من ممارسة قتال بلا فروسية، وإبادة أبرياء من خلال أزرار عمياء، وليس من خلال مواجهة متحدية.

إن الحروب الأحدث تشير إلى وحشية أخفى، فضلا عن التمادى فى

حروب التجويع والتشريد والإذلال، إن النقد الذى لا يتعلم منه صاحبه يصبح خدعة لا معنى لها إلا تضليل الآخرين. هل منعتهم هذه الأفلام المتقنة والصادفة عن فيتنام من التصفيق لإسرائيل وهى تمارس كل ما عابوه فى حرب فيتنام؟ هل منعهم نقد اضطهاد الزنوج من التصفيق للحلول العنصرية التى يطرحونها حلا لمأساة فلسطين؟

[1] - نشرت فى جريدة الوطن بتاريخ 28-2-2001